الحقيقة المحمدية والعلم الحديث

بقلم الاستاذ: حسنى طه شكبان

هجرة فى سبيل المعرفة والحقيقة...

بين يدى ذكرى الهجرة العاطرة نقدم بحث المعرفة فى رسالة المصطفى هدية وتحية . .

أما بعد . فلن تجد — فى إخلاص ويقين — رساله كالإسلام قدست المعرفة وفتحت آفاقها صفحات رائعة فى كل الوجود . . . من الذرة التى لا ترى إلى المجرة الكبرى . . من المادة الدوارة فى ذراتها . . إلى الحياة المتسامية فى مجالاتها ، ومن الخلائق وهى تملأ الوجود فى أرض وسموات إلى الخلاق والأعظم المهيمن من فوق السموات . .

ولن تجد كمحمد — العليم — داعية إلى الخير والحق ، وخبيراً بأسرار الوجود ، وفاتحاً للكمال الإنسانى أبوابا ، وللمعرفة العليا آفاقا ، فلم يسبقه فى كماله معلم ، ولن يلحقه فى آفاقه خبير . . وهو هو النبى الأمى الذى لم يقرأ كتابا ولم يخطه بيمينه . . .

لقد فتح الوجود كله كتابا للمعرفة . وفتح للبصيرة عيونا نفاذة ، وللعقل منطقاً لا يزيغ فما كانت رسالته غير معرفة ويقين ، وما كانت حياته سوى رحلة ويقين علوية من مجال الأرض إلى رحاب الحق الأعظم « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . . . »

فهل تجد بيانا كروعة حديثه وقد سأله الإمام على — كرم الله وجهه — عن سنته فقال : المعرفة رأس مالى . والعمل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى والثقة كنزى والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى وقرة عينى فى الصلاة . . .

بيان جامع من الحكمة لا نظير له . . رسالة من المعرفه ، وسلاح فى الحياة

من العلم ، دعوة قامت على ميزان العقل وخلق من الجهاد الحق فى سبيل هذه المعرفة . . ثم صلة عليا برب الوجود الأعظم، معلم الإنسان الحكمة والبيان ، وبالقلم علم ما لم يعلم . . .

أما ثبت الصفات المتخللة لهذا القانون ، فهو عدة أهل المعرفة واليقين فى هذا الوجود بيان غنى عن التوضيح وإن حمل من الفقه فى الحياة كل تجربة ، ومعرفة . . .

وإنا لمع سنتنا فى بحث علم النفس فى تطلعنا إلى نبضات قلب الرسول الكريم يخفق خفقات الإشفاق والحنو على الجاهلين وإلى نبرات صوته الكريم يفيض الحكمه واليقين . وإلى لمسات يده الصناع تفتح للعقول والقلوب أعينا ، وإلى إشراق روحه يبدد من الأرض جحافل الظلام والخرافات التى رانت على الناس قرونا متطاولة ، وإيذانا بخلود النور مع الحياة فى كلماته ورسالتـــه وقرآنه : قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين .

ولنتطلع إلى العالم قبيل رسالته . . ثم لنترسم خطاه مع النور فى الحياة....

عالم يموج بالضلال والبغى . . ينقسم إلى أقسام ثلاثة .

١ ــ امبراطورية فارس ومستعمراتها فيما يقرب من ثلث العالم شرقاً ، قامت على حضارة من بعض المعارف المادية فشيدت القصور وعمرتها بالأثاث ، وأقامت فلسفتها فى الحياة على أثارة من معرفة ورصيد من دعوات الحكماء ، وخلطت ذلك بسخافات من الجهالة فوجهت قلوبها ويقينها إلى النار تعبدها من دون الله كفاعل قوى جبار يستحق العبادة والإخبات . ثم اتخذت لها سنة من البغى والسيطرة تستعلى به على شعوب العالم الضعيفة، ووجهت القطيع البشرى فى موكب من البغضاء والحقد ضد الإنسان الآخر فى امبراطورية الروم ... فهى معها فى حرب سجال . .

٢ ــ وهناك غربا قامت دولة الروم تحتل منطقة فى شرق وغرب تقارب ثلث العالم وشيدت لها حضارة من فقهها فى الحياة والمادة ، ومن ميراثها الفكرى من إخوانهم الإغريق ، وتلقت المسيحية السمحة من حوارى السيد المسيح فانقلبت فى مجتمعاتها إلى عشرات من المذاهب المتنافرة ، وقام قيصرها يجمع الكلمة فأضاف مذهبا جديداً سماه المذهب الملكانى الذى رفضه فقهاء المسيحية فى مصر وغيرها ، فكان

من جراء ذلك عدوان وبغى آثم من أجناد الروم ضد حرية التعبد والفقه فى الدين . . .

فلا نعجب إذا حدثنا التاريخ فى مرحلة تالية كيف جاء الغرب إلى الشرق فى موكب من البغى والعدوان الفاجر : يدمر ويسفك الدماء ويستحل الحرمات ، ويستعبد الناس بصورة ترفضها كل الأديان ، وتأباها كل ألوان المعرفة الإنسانية فضلا عن المسيحية السمحة الداعية إلى السلام حيث تقول : من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر أيضا ، ومن سيرك ميلا فسر معه ميلين ، ومن نازعك ثوبك فاخلع له الرداء أيضاً « باركوا لاعنيكم ، و أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلو من أجل الذين يسيئون إليكم . . . »

لا نعجب من ذلك فقد قرر حكماء التاريخ أن الغرب فهم المسيحية فهما خاطئاً على غير ما فهمها الشرق . . فهمها للآخرة فى صلوات تقام فى الكنيسة منبتة الصلة عن فقه الحياة والمعاملة ، ومن ثم جاء وا إلى الشرق بروح من البغضاء والكراهية ، كبراً فى الأرض وعلوا ، يأباه السيد المسيح ويلعنه .

كما لا نعجب حين قامت الثورة الكبرى على الكنيسة فى الغرب لأن فقهاءها هم الآخرين فسروا المسيحية تفسيراً خاطئاً يعارض العلم والمعرفة . . وهما يستمدان كيانها من الواقع الذى لا ينكر . . .

ذلك أن ألواناً شتى من هشيم الخرافات والأباطيل ، وضلال الفهم والتدبر قد أحاط بالفكر الرومانى ، فلم يكونوا بأحسن حالا من إخوانهم فى فارس ، وظل منسحبا معهم فى أوربا إلى عهد قريب حتى حاولوا التوفيق نين العلم والدين الحق فى مرحلة متأخرة . . .

ثم نشهد حشداً من البغضاء يسوقهم هم الآخرين ليبيدوا إخوانهم فى فارس . . .

وهنا وهناك فى الجزيرة العربية والهند والصين واليابان وغيرها دول ودويلات أظلها الجهل والفوضى ، وغمرتها البغضاء والحماقة ، ورتعت فيها الخرافة والضلال . . فعبدت الأصنام ، واتجهت إلى الكواكب ، وقدست الحيوان ، والتجأت إلى السحر والعرافة وعاشت مع الشقاء والدماء ، وأحاطتها شريعة الغاب ، وظلمات الجهالة .

تلك صورة سريعة لحالة العالم . . قبيل إشراق المعرفة المحمدية على الأرض . . فكيف انتشر النور المحمدى فى كل الآفاق !! .

لكم شوهد منذ شبابه مطرقاً يفكر أو منطلقاً فى شعاب الجبال يستقرئها الأسرار ، أو مقلباً وجهه فى صفحة السماء يستنبئها الغيب المحجب . . حتى قالوا : إن محمداً عشق ربه .

لكم تألم لهذا القطيع البشرى السادر فى ضلالات وحماقات من الفهم أو التقاليد فاعتزله ورفض أن يشترك فى سخافاته ، وهو بعد شاب ورجل حتى سموه بالمتحنف على دين ابراهيم ، وعرفوه بينهم بالصادق الأمين .

وجاء برسالة الحكمة والمعرفة . . أولها وآخرها . . قراءة وفقه وارتقاء « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .

إن الحضارة والتطور والسعادة فى أصول ثلاثة : القراءة والكتابة وتعلم الجديد كشفاً عن المجهول . . . وذلك فى آيات ثلاثة : اقرأ باسم ربك الذى خلق . . الذى علم بالقلم . . علم الإنسان مالم يعلم .

وصدع محمد بالأمر ، فقرأ صفحة الوجود ، وتعلم أسرار الوجود ، ومنح الإنسانية من المعرفة ما لا حد له ولا نهاية . . مضى ينتشل العقول من وهدتها وضلالاتها فى العقيدة والفهم ويرقى بالطبيعة البشرية من البغضاء والحروب ، ويبنى للإنسانية حضارة الأرض وجنة السماء فى الخلود . ولقد ضاقت بمعارفه مكة فكانت هجرته حفظا للعلم ونشراً للحكمة .

« أيها الناس . . اعبدوا الله وحده لا شريك له واعملوا صالحاً . وتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . . ولن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابوا . . أفشوا السلام بينكم . . العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وسبيل وسبيلكم فى الحياة معرفة متواصلة وبحث مقيم فى كل شىء .

قل أنظروا ما فى السموات والأرض . . أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء . . إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . إن فى ذلك لآيات لقوم

يعقلون . ، لقوم يتفكرون . . لقوم يسمعون . . . لقوم يتذكرون . . . لكل صبار شكور . . . وتلك لمحات من دعوته وشعاره فيها « قل هذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن أتبعني وسبحان الله . . . » وعليك أن تتصفح رسالته الكريمة فى كتاب : هو دستور الحياة ، أو فى سنة هى سمو الحياة أو فى فهم هو سر الحياة . . أو فى علوم ومعارف هى حكمة الحياة . . .

ثم أقرأ آثاره فى التاريخ فهى ملء الحياة ، وتطور الحياة . . .

لقد تجمع العرب من حوله فإذا هم حكماء الأرض وقادتها إلى السعادة والسلام : خلصوا الفرس من سخافات العقيدة ، وأنقذوا الشرق من إذلال الروم وقدموا للغرب فقه الوجود ، ونور الوجود ، وأسهموا فى الحضارة بأوفى نصيب . وفى جامعات القاهرة ودمشق وبغداد وقرطبة وطليطله والرباط ، ومكتباتها ودور العلم فيها ، ومساجدها ومعاملها قام أتباع محمد يدرسون ومازالوا يدرسون لأنفسهم وللناس رسالة محمد وحكمة محمد وهدى محمد .

وكما وفد الغرب على جامعات عين شمس ومنفيس وطيبة والإسكندرية منذ عهد الفراعنة . . . وفد الغرب على معاهد الحكمة العربية فى ديار العروبة يبحث فى كل فن فى الحياة فى نطاق حكمة محمد : « تعلموا العلم ، فيه يعرف الحلال من الحرام ، وهو منار الجنة ، وهو الأنيس فى الوحدة والصاحب فى الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبر على البلاء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء . . . » « كلمة من الحكمة يسمعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها ، خير له من عبادة سنة . » « تفكروا فى آلاء الله . »

« نضر الله وجه امرئ سمع مقالتى فوعاها ، وبلغها كما سمعها ، فرب مبلغ أوعى من سامع . . . ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه . . ليبلغ الشاهد الغائب . فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه . . العلماء ورثة الأنبياء . . ورثو العلم . . من أخذه أخذ بحظ وافر ، ومن سلك طريقا يطلب به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة . . وإنما العلم بالتعلم » .

واليوم يقف العالم فى مثل موقفه بالأمس قبيل إشراق النور المحمدى . . معسكر فى الشرق وآخر فى الغرب . . كفروا بحكمة السماء ، ورسالات الأنبياء ، وظنوا الحياة ظلماً وتعسفا وعلوا فى الأرض واستكباراً ، أو مغامرة وقتالا ، وتدميراً وشقاء . . .

ويقف الشرق ممسكا فى يمينه جماع حكمة الأنبياء فى قرآن محمد المنزل عليه من ربه نوراً ، وفى حكمة محمد الجامعة ليقدم الشرق من جديد لأخيه الغرب رسالة الحضارة والتطور والكمال . . رسالة المحبة والرحمة والسلام .